الفصل الثاني

مرويات اللغويين ورواة الشعر

وللإحسان نصيب في مرويات أهل اللغة على الرغم من أخذهم أنفسهم بالشدّة والدقة في الاحتياط لمروياتهم من أن تَندَّ عن مقاييسهم في رواية الشعر التي تدور حول الأعصار دون الأشعار والبداوة دون الحاضرة والطبع لا الصنعة غالباً[1].

فأبو عمرو بن العلاء يجد تميزاً في قصيدة المُثَقِّب العبدي التي مطلعها:

أفاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكِ مَتِّعيني[2] ومَنْعُكِ ما سَأَلْتُ كأَنْ تَبيني

فهو يستجديها، وكان يدل على الإحسان فيها بقوله: «لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه»[3] وتمام القصيدة[4]:

فلا تَعِدي مواعِدَ كاذباتٍ تَمُرُّ بها رياحُ الصَّيْفِ دوني[5]
فإني لو تُخالُفني شمالي خلافَكِ ما وَصَلْتُ بها يَميني
إذاً لَقَطَعْتُها وَلَقُلْتُ بِيْني كذلِكَ اجْتَوي مَنْ يَجْتَويْني[6]

---

(١) د. محمد عيد: الرواية والاستشهاد باللغة ص ٣٣.

(٢) المتاع هنا: وداعها إياه وتسليمها عليه، أو عدتها له.

(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج١/٣٩٥ وخزانة الأدب ٤/٤٣١.

(٤) المثقب العبدي: ديوانه تحقيق حسن كامل الصيرفي ص٨٧-٩٢ والمفضليات ٢/٨٧-٩٢.

(٥) خص رياح الصيف لأنها لا خير فيها، إذ تحمل الغبار والعجاج وما أشبه.

(٦) الاجتواء: ألا يستمرىء البلاد، لعدم موافقتها له.

لِمَنْ ظُعُنٌ تُطَالِعُ من ضُبَيْبٍ ... فما خَرَجَتْ من الوادي لحِيْنِ[1]

مَرَرْنَ على شَرَافِ فَذَاتِ رِجْلٍ ... وَنَكَّبْنَ الذَّرَانِحَ باليَمِيْنِ[2]

وَهُنَّ كذاك حِيْنَ قَطَعْنَ فَلْجاً ... كَأَنَّ حُمُولَهُنَّ على سَفِينِ[3]

يُشَبِّهْنَ السَّفينَ وَهُنَّ بُخْتٌ ... عُراضاتُ الأَباهِرِ والشُّؤُونِ[4]

وَهُنَّ على الرَّجائِزِ واكِناتٌ ... قَوَاتِلُ كلَّ أَشْجَعَ مُسْتَكِينِ[5]

كغزلانٍ خَذَلْنَ بذاتِ ضَالٍ ... تَنُوشُ الدَّانياتِ من الغُصُونِ[6]

ظَهَرْنَ بِكِلَّةٍ وسَدَلْنَ أُخرى ... وَثَقَّبْنَ الوَصَاوِصَ للعيونِ[7]

وهُنَّ على الظِّلام مُطَلَّباتٌ ... طويلاتُ الذَّوائبِ والقُرُونِ[8]

أَرَيْنَ محاسِناً وكَنَنَّ أُخرى ... من الأَجيادِ والبَشَرِ المَصونِ[9]

ومن ذَهَبٍ يَلُوحُ على تَرِيبٍ ... كَلَوْنِ العاجِ لَيْسَ بذي غُضُونِ[10]

(١) الظعن: الهودج، ثم سميت النساء به لوجودهن فيه، وخبيب: موضع، ولحِيْن: يقصد الإبطاء في السير.

(٢) شراف وذات هجل والذرانح: مواقع في البحرين وقيل في الأحساء، ونكبن: عدلن.

(٣) فلج: اسم بلد، والحمول: المراكب فيها النساء.

(٤) البخت: الإبل الطويلة، وقيل الخراسانية، وفي اللفظ خلاف حول عربيته وأعجميته، والأباهر: الظهور، والشؤون: شعب قبائل الرأسي التي تجري منها الدموع إلى العينين.

(٥) الرجائز: جمع رجازة، وهي مركب النساء، واكنات: جالسات مطمئنات، وقواتل كل أشجع: يقتلن كل أشجع، وقيل الأشجع الطويل: أي من تطاول إليهن بالنظر وهن في مركبهن، فيستكين ويخضع.

(٦) خذلن: نافرن عن القطيع، وذات ضال: موضع يكثر فيه الضال، وهو السدر، وتنوش تتناول.

(٧) الكلة: ستر رقيق يوضع على الهودج للتوقي، وسدلن: أرخين، والرقم: البرود اليمانية، والوصاوص: البراقع.

(٨) القرون: جمع قرن، وهي كل ضفيرة من ضفائر الشعر، والمقصود: أنهن على ظلمهن الرجال يطلبن.

(٩) كَنَنَّ: أخفين، الأجياد: جمع جيد وهو العنق، الديباج: ثياب من أحسن الحرير.

(١٠) التريب: جمع تريبة، وهي عظام الصدر، والعاج: ناب الفيل، والغضون: تثني الجلد.

إذا ما فُتْنَهُ يوماً برَهْنٍ ... يَعِزُّ عليه لم يَرْجِعْ بحينِ[1]

بتَلْهِيَةٍ أُرِيشُ بها سِهامي ... تَبُذُّ المُرْشِقاتِ من القَطِينِ[2]

عَلَوْنَ رَباوَةً وهَبَطْنَ غَيْباً ... فَلَمْ يَرْجِعْنَ قائلَةً لِحينِ[3]

فَقُلتُ لِبَعْضِهِنَّ، وشُدَّ رَحْلي ... لهاجِرةٍ نَصَبْتُ لها جَبيني[4]

لَعَلَّك إن صَرَمْتِ الحَبْلَ مِنّي ... كذاكِ أكُونُ مُصْحِبَتي قَرُوني[5]

فَسَلِّ الهَمَّ عنكَ بِذاتِ لَوْثٍ ... عُذافِرَةٍ كَمِطرَقَةِ القُيُونِ[6]

بِصادِقَةِ الوَجِيفِ كَأَنَّ هِرّاً ... يُباريها ويأخُذُ بالوَضِينِ[7]

كَساها تامِكاً قَرِداً عليها ... سواديُّ الرَّضيح مَعَ اللَّجِينِ[8]

---

(١) فتنه: تركنه وخلفنه، ورَهْنه ـ ههنا ـ هواه وقلبه، يقول: إذا صار في أيديهن وملكنه لم يرجع إليه، ولم يتخلص منهن.

(٢) بتلهية: تفعلة من اللهو، أي حديث يتلهى به، والمعنى: «أريش حديثي (أجعله كالسهام المريشة) بما يزين للنساء، فيقع حديثي في قلوبهن متمكناً كتمكن السهم إذا ريش». وأراد بالتلهية: محبوبته، وتبذ: تسبق والمرشقات: التي تمد أعناقها للنظر ويقال معناها الظباء. والقطين: الأتباع والخدم والجيران، وأراد أن محبوبته تبذهن بالحسن.

(٣) الرباوة: ما ارتفع من الأرض، والغيب: ما اطمأن منها، والقائلة: القيلولة، والمقصود أي لم يكدن ينزلن للقيلولة.

(٤) الهاجرة: شدة الحر وسط النهار، وعصبت لها جبيني: أي تعصبت بالعمامة لأتقي الحرّ.

(٥) قرونه: نفسه، والصرم: القطيعة، ومصحبتي: منقادة لي، والمعنى: إن قطعت الوصل أطعت نفسي وقطعت وصلك.

(٦) ذات لوث: يصف ناقته بالقوة، وعذافرة: الناقة الشديدة الأمينة الظهر الوثيقة، وكمطرقة القيون: يشبه ناقته في صلابتها بمطرقة الحدادين.

(٧) الوجيف: ضرب من السير، والوضين: حزام الرجل، يصف ناقته بالنشاط وكثرة التلفت فكأن هرّاً بجانبها يناوشها فتبغي الهرب منه.

(٨) يصف سنامها بأنه تامك: طويل ومتلبد (قرد)، والرضيح: النوى المرضوح أي المكسور واللجين: ما تلجّن أي تلَزَّج (صار لزجاً) من علف وورق وبزر.

إذا قَلِقَتْ أَشُدُّ لها سِنَافاً ... أَمَامَ الزَّوْرِ من قَلَقِ الوَضِينِ (١)
كأَنَّ مواقِعَ الثَّفِناتِ مِنْها ... مُعَرَّسُ باكِراتِ الوِرْدِ جُونِ (٢)
يَجُذُّ تَنَفُّسُ الصُّعَداءِ مِنْها ... قُوَى النِّسْعِ المُحَرَّمِ ذي المتونِ (٣)
تَصُكُّ الحالِبَيْنِ بِمُشْفَتِرٍّ ... لَهُ صَوْتٌ أَبَحُّ من الرَّنِينِ (٤)
كأَنَّ نَفِيَّ ما تَنْفِي يَدَاها ... قِذافُ غَرِيبَةٍ بِيَدَيْ مُعِينِ (٥)
تَسُدُّ بدائِمِ الخَطَرانِ جَثْلٍ ... خَوَايَةَ فَرْجِ مِقْلاتٍ دَهِينِ (٦)
وتَسْمَعُ للذبابِ إذا تَغَنَّى ... كَتَغْرِيدِ الحَمامِ على الوُكُونِ (٧)
فَأَلْقَيْتُ الزِّمامَ لها فنامَتْ ... لِعَادَتِها مِنَ السَّدَفِ المُبِيْنِ (٨)
كأَنَّ مُنَاخَها مُلْقَى لِجامٍ ... على مَعْزَائِها وعلى الوَجِيْنِ (٩)

---

(١) السناف: الحبل الدقيق يشد من المنحر إلى الحزام، والزور: الصدر، والوضين: الحزام.

(٢) الثفنات: جمع ثفنة وهي الركبة من البعير أو الناقة، والمُعَرَّس: موضع التعريس وهو النزول آخر الليل أو أوله. وباكرات الورد جون: يعني القطا الأسود الذي يرد الماء، وهو يصف آثار مبرك ناقته كآثار القطا.

(٣) يجذ: يقطع، وقوي النسع: السير القوي، والمُحَرَّم: المدبوغ فلم يُلَيَّن، وذو المتون، ذو القوى. ويريد أنها إذا تنفست أو زفرت قطعت النسع.

(٤) تصك: ترمي، الحالبان: عرقان يكتنفان السرّة، المُشْفَتِرّ: المتفرق ويعني الحصى، أراد أنها تزج بالحصى في سيرها فتصك به حالبيها أو جانبيها على رواية (الجانبين).

(٥) النفي: القذف، والمعين: الأجير المستعان به. شبّه ما تنفي يداها من الحصى بحجارة تقذف بها ناقة غريبة أتت حوضاً لتشرب منه فرميت.

(٦) دائم الخطران: يريد ذنبها في حركته، والجثل: الكثير الشعر، والمقلات: التي لا تلقح إلا بطيئاً، والدهين قليلة اللبن، يعني: أنها تملأ ما بين قوائمها بذنب ضاف متصل الحركة.

(٧) الذباب: صوت أسنان البعير إذا صَرَفَت أنيابها، والوكون: جمع وكن وهو عش الطائر.

(٨) السدف: النهار، أو الضوء وهو من الأضداد: الليل أو النهار. والمبين: البين.

(٩) المناخ: الموضع الذي تناخ فيه الإبل، والمعزاء: الأرض الكثيرة الحصى، والوجين: ما غلظ من الأرض. شبّه مواقع ركبتيها وكركرتها بمواقع اللجام إذا أُلقي على الأرض.

كَأَنَّ الكُورَ والأَنْسَاعَ منها ... على قَرْواءَ ماهِرَةً دَهِينِ[1]

يَشُقُّ الماءَ جُؤْجُؤُها ويَعْلو ... غوارِبَ كُلِّ ذي حَدَبٍ بَطِينِ[2]

غَدَتْ قَوْداءَ مُنْشَقّاً نَساها ... تَجَاسَرَ بالنُّخاعِ وبالوَتِينِ[3]

إذا ما قُمْتُ أَرْحَلُها بِلَيْلٍ ... تَأَوَّهُ آهةَ الرَّجُلِ الحزينِ

تَقُولُ إذا دَرَأْتُ لها وَضِينِي ... أَهذا دِيْنُهُ أَبداً ودِيْنِي[4]

أَكُلُّ الدَّهرِ حِلٌّ وارتحالٌ ... أما يُبْقِي عَليَّ وما يَقِيني

فَأَبْقَى باطلي والجِدُّ مِنْها ... كَدُكَّانِ الدَّرَابِنةِ المَطِينِ[5]

ثَنَيْتُ زِمَامَها وَوَضَعْتُ رَحْلي ... ونُمْرُقَةٌ رَفَدْتُ بها يميني[6]

فَرُحْتُ بها تُعارِضُ مُسْبَطِرّاً ... على صَحْصاحِهِ وعلى المتونِ[7]

إلى عَمْرٍو ومِنْ عَمْرٍو أَتَتْني ... أَخي النَّجَداتِ والحِلْمِ الرَّصِينِ

فإما أَنْ تكون أخي بِحَقٍّ ... فَأَعْرِفُ مِنْكَ غَثِّي أو سَمِيْنِي

وإلاَّ فاطَّرِحْني واتَّخِذْني ... عَدُوّاً أَتَّقِيكَ وتَتَّقِيني

---

(١) الكور: الرحل، والأنساع: جمع نسع، وهو سير تشد به الرحال، والقرواء: سفينة طويلة القرا وهو الظهر، وماهرة: سابحة، ودهين: مدهونة.

(٢) الجؤجؤ: الصدر، وغوارب الماء: أعاليه، وهي الأمواج، والحدب: ارتفاع الموج، والبطين: الواسع.

(٣) القوداء: الطويلة العنق، النسا: عرق في الفخذ يظهر إذا سمنت الناقة. تجاسر: تظهر والنخاع: عرق في العنق متصل بالدماغ وبالجسم.

(٤) درأت: شددت ومددت، والوضين: بمنزلة الحزام، والدين: الدأب والعادة.

(٥) الباطل: اللهو والغزل والصيد، والجد: الركوب في الغارات والمعالي، ودكان الدرابنة: دكان البوابين، أي أنها قوية ضخمة وإن أتعبها في لهوه وجده.

(٦) ثني الزمام: جذبه، والنمرقة: الوسادة.

(٧) تعارض: تباري وتحاكي، والمسبطر: الطريق الممتد، والصحصاح: ما استوى من الأرض، والمتون: ما غلظ منها وصلب.

وما أدري إذا يَمَّمْتُ أمْراً أريدُ الخَيْرَ أيُّهما يَلْيني
أألخَيْرُ الذي أنا أبْتَغيه أم الشَّرُّ الذي هو يَبْتَغِيْني

وهذه القصيدة ليست غريبة ولا متفردة عن القصيدة الجاهلية في بنائها الفني العام، من حيث ذكر المرأة، ووصف الظعن، وتصوير الراحلة وعناء الرحلة، والتوقف أخيراً عند غاية الرحلة في المحطة الأخيرة.

فقد بدأ المثقب العبدي قصيدته بمحاورة سريعة مع صاحبته وطلب منها أن تمتعه قبل رحيلها بحديث أو وعد، وأبان عن خلقه الذي يجازي على القطيعة بمثلها، ثم وصف ظعن محبوبته وتتبع سيرها، وانعطف من خلال ذلك إلى حديث عن النساء في هوادجهن، وانتقل بعد ذلك إلى ناقته التي يسلّي بها همه، فأفاض في وصفها؛ فعرض لشدتها، وسرعتها وضخامتها، وقوة زفيرها، وأثر أخفافها على الأرض، وذيلها من حيث طوله وكثافة شعره، وصوت أنيابها المطرب عند الأكل، ونومها، ومناخها، وأبان عن إجهاده لها بطول السير والسفر، وأن لهوه وجده لم يبق منها إلا هيكلاً ضخماً، ووصل أخيراً إلى عمرو بن هند الذي خيره بين الصداقة أو العداوة، ثم أنهى ذلك كله بالإقرار بضعف الإنسان أمام الغيب والقدر.

لكن ما يميز هذه القصيدة أنها لون متفرد لشخصيّة ذات رؤية فكرية ونفسيّة في الحياة الجاهلية، إذ تطرح خلقاً تربوياً من خلال مواقف سلوكية بعيداً عن النمط التقريري المتكرر في الإبانة عن الخلق المثال من الصبر، والعفة، والكرم، والشجاعة، وحماية الجار وما إلى ذلك مما جاء من قيم اجتماعية في الشعر الجاهلي.

يعرض المثقب العبدي أسلوباً في التعامل الإنساني أساسه الصدق والصراحة والوضوح، لأنه الطريق الذي تستقيم فيه العلاقات البشرية، وتصفو الحياة به وتحلو؛ فلا خداع في حب، ولا مداراة لكره، ولا مصانعة لقويّ، ولا مداهنة لعدو.

وتنبىء شخصيته عن ثبات في التزام ذلك في مواقف الحياة ومع أجناس الناس فيها، بمستوياتهم المختلفة والمتباينة، فقد أبدى صرامة وحزماً في حواره مع صاحبته

إذ ضرب لها مثلاً إذا أصرت على موقفها من البين دون الحديث معه بقوله: «لو خالفتني شمالي كمخالفتك لقطعتها وأفردت يميني منها»، وبالحزم الصارم نفسه كان حواره مع عمرو بن هند:

فإما أن تكون أخي بحق ... فأعرف منك غثي أو سميني
وإلاَّ فاطرحني واتخذني ... عدواً أتقيك وتتقيني

ولهذه اللهجة الحادة في الخطاب شك الأصمعي في أن يكون المخاطب بالأبيات عمرو بن هند الملك فقال: «وأراه غير الملك، لأنه لم يكن ليخاطبه بمثل هذا الكلام»[1]. وسواء أكان مقصود المثقب العبدي عمرو بن هند الملك، أو رجلاً آخر من أهله وعشيرته كما ذهب إلى ذلك بعض الشُرّاح[2]، فإن التوحد بين مطلع القصيدة ومقطعها واضح الدلالة على اطراد هذا الخلق والتزامه به منهجاً في طلب الوفاء..

وحمل التوحد بين طرفي القصيدة إلى استجادتهما دون باقي بناء القصيدة، فابن قتيبة يردف مقولة أبي عمرو بن العلاء في تمني أن يكون الشعر مثلها بقوله: «وفيها يقول:

أفاطم قبل بينك متعيني ... ومنعكِ ما سألتك أن تبيني
ولا تعدي مواعد كاذبات ... تمر بها رياح الصيف دوني
فإني لو تعاندني شمالي ... عنادك ما وصلت بها يميني
إذاً لقطعتها ولقلت بيني ... كذلك اجتوي من يجتويني
فإما أن تكون أخي بحق ... فأعرف منك غثي من سميني

... الأبيات إلى نهاية القصيدة[3].

وإرداف ابن قتيبة مقولة أبي عمرو بهذه الأبيات يومىء إلى أن مقصود أبي عمرو

---

(١) حسن كامل الصيرفي: حاشية تحقيق ديوان المثقب العبدي ص٢٠٨.

(٢) المصدر نفسه ص٢٠٩.

(٣) انظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/ ٣٩٥-٣٩٦.

منصرف إلى هذه الأبيات خاصة دون باقي القصيدة، ويرشح هذا الفهم أن ابن طباطبا وافق ابن قتيبة في هذا الفهم فجعل هذه الأبيات مما تجب روايته والتكثر لحفظه[1].

وعلى الرغم من وضوح الخلق القويم في هذه الأبيات، خاصة صدق الإقرار بالضعف والعجز أمام قوة الغيب الكبرى في توجيه الإنسان وتسييره في قوله:

فما أدري إذا يممت أرضاً ... أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه ... أم الشر الذي هو يبتغيني

فإن من الظلم أن تقيد رؤية أبي عمرو بن العلاء النقدية في هذه الأبيات دون تمام القصيدة؛ لأن الوحدة التركيبية للقصيدة نفسياً وفكرياً وأداءً لغوياً تمنح أجزاء القصيدة الأخرى معالم جمالية ذات قيمة عالية في شرعية الانتماء إلى ملاحظة أبي عمرو بن العلاء وليس التجافي عنها.

ولا ينكر الباحث أن في باقي أجزاء القصيدة فناً متميزاً من وصف الظعن والرحلة والناقة مما تداوله الشعراء الجاهليون، مثل تشبيه الإبل بالسفينة «يشبهن السفينة وهن بخت» أو تشبيه النساء بالغزلان «كغزلان خذلن بذات ضال» أو تسلية الهموم بركوب الإبل «فسل الهم عنك بذات لوث» أو تشبيه ناقته في صلابتها بمطرقة الحدّادين «عذافرة كمطرقة القيون» ووصفها كذلك بكثرة التلفت والنشاط «كأن هراً يباريها ويأخذ بالوضين» أو بطول الذنب أو طول الظهر أو عِظم الهيكل، أو ما إلى ذلك من نعوت وصور شاعت في بيئة الشعراء آنذاك فانفعلوا بها.

غير أن أخذه نفسه بالشدة، وتعهده لسلوكه بالأنفة والعزّة، ظل مرعيّاً في القصيدة مع ما يفرضه هذا الخلق من عفة وصدق. فقد نعت النساء في هوادجهن نعتاً لعله أطول وأمتع ما قيل في الظعن[2]، إذ اقتصد في نعتهن ولم يسرف، وأبان عن الجمال

---

(١) انظر: ابن طباطبا: عيار الشعر ص ٦٣.

(٢) أحمد محمود شاكر وعبد السلام هارون: (حاشية التحقيق) المفضليات ج٢/٨٧.

والحُسن دون أن يسف، فلم يجاوز صفة الغزلان في جمال الأعين، ودقة الأجسام، وخفة الحركة والنشاط، والستر بالبراقع المثقبة للعيون، ويزيد بياض نحورهن جمالاً ما يلوح عليه من ذهب تقلدنه، وقدم ذلك كله على سبيل العموم، ثم خص المرأة المرادة (محبوبته) بالحسن دونهن في كل ذلك.

وبالصدق ذاته كان إقرار المثقب الكاشف لطبيعة الميل الإنساني إلى النساء، من غير مكابرة في مجافاتهن، أو مداراة لاعتزالهن، فعلى الرغم من الصرامة في معاملتهن، والشجاعة في الانتصار للرجولة منهن، إلا أنهن غالبات مرغوبات على غلبتهن وظلمهن:

وهن على الرجائز واكنات ... قواتل كل أشجع مستكين
وهن على الظِلام مطلبات ... طويلات الذوائب والقرون

ويأتلف وصف الرحلة والراحلة مع الخلق المتميز به المثقب العبدي، حيث ضمّن الارتحال غاية ثنائية في الطلب، فقد ركبه تسرية لحب غير متكافىء الوفاء، وتجلية لتوازن المودة في الإخاء.

وبالحدة ذاتها كان سلوك الشاعر ومعاملته مع ناقته، فهو لا يترك لها فسحة من الوقت من غير رحيل، ومع ذلك فهي مطردة القوة والنفاذ والعزم، وهو بذلك إنما يعطي الناقة صورة نفسه بصدقها وشدتها:

إذا ما قمت أرحلها بليل ... تأوه آهة الرجل الحزين
تقول إذا درأت لها وضيني ... أهذا دينه أبداً ودِيني
أكل الدهر حل وارتحال ... أما يبقي عليّ وما يقيني
فأبقى باطلي والجد منها ... كدكان الدرابنة المطين

وينتهي الشاعر من رحلته وغايته عند عمرو بن هند ليعود لنقطة انطلاق القصيدة، بعد أن جعل الرحلة محط الارتكاز فيها، قائمة على تجسيد القوة والقدرة والشدّة، غير أنه يمدّ طلق النهاية بمفاجأة فيها انقلاب في الإحساس ونبرة التعبير عنه، فإذا

الإحساس الطاغي الحدّة، العالي النبرة، تخفت حدته، وتلين لغته، وذلك لأن الشاعر أبدى ضعفه واستكانته أمام الغيب والقدر في انتصار الخير أو الشر في مراد الإنسان ومقصوده، وهو بذلك إنما يعبر تعبيراً صادقاً عن جهل الإنسان لنتاج سعيه، وعجزه عن إدراك بغيته؛ لأن القدر فيه العلم، وعليه المآل، وأنى للإنسان باستكناه خبره ومكنون سرّه؟

وهكذا جاء الإنقلاب مفارقة عمقت في القصيدة أبعاداً فكرية وفنية، فهي ترسخ التصور الخلقي للإنسان في قوته وضعفه؛ قوته في القصد والسعي والطلب، وعجزه عن اكتشاف مآل ذلك وإدراكه بدءاً.

وعززت هذه المفارقة الإحساس بالحزن كذلك، إذ بين تنامي الاعتداد بالنفس وتراجعه، تتبلور هذه العاطفة؛ لأن التوازي بين تمكن الحال وعدمه يثير الإشفاق والحزن الذي من شأنه أن يعزز المشاركة، ويمكّن الممازجة في القصيدة، قوة وضعفاً، وحدة ولياناً، ونبرة عالية، وإيقاعاً خافتاً هامساً.

فلعل لذلك كله، كانت وصية أبي عمرو بن العلاء بهذه القصيدة نموذجاً للفن والإمتاع والخلق!

* * *

ومن قصائد عدي بن زيد العبادي[1] الأربع الغرر الروائع المبرزات[2] انتخب يونس بن حبيب أحد أعلام المدرسة البصرية في الرواية قصيدة متميزة الجودة

---

(١) عدي بن زيد شاعر فصيح من شعراء الجاهلية، كان نصرانياً، كذلك كان أبوه وأمه وأهله، جعله ابن سلام في فحول الطبقة الرابعة، وكان يسكن الحيرة ويراكن الريف، وسأل الأصمعي أبا عمرو بن العلاء عنه فقال: «كسهيل في النجوم يعارضها ولا يدخل فيها» أي أنه يُشَبَّه بها، ويقعد به عن شأوها ألفاظه الحيرية، وأنها ليست بنجدية، ولم يعده الأصمعي فحلاً كذلك، وعلماء اللغة لا يرون شعره حجة، وكانت العرب لا تروي شعره. (انظر الموشح ١٠٢-١٠٣ والشعر والشعراء ١/٢٢٥، ٢٣٠).

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ج١/١٤٠.

والإحسان، «قال ابن سلام: سمعت يونس وقد تمثل بهذا البيت:

أيُّهـا الشَّـامتُ المُعَيِّرُ بالـدَّهـ ـر أأنْـتَ المُبَـرَّأُ الـموفـور
أم لديك العَهْدُ الـوثيق من الأيـ ـام؟ بل أنـت جاهـل مغـرور

فقال: لو تمنيت أن أقول شعراً ما تمنيت إلا هذه، أو قال: مثل هذه»[1].

وتمام القصيدة[2]:

أَرواحٌ مُـوَدِّعٌ أم بُـكُـورُ لَكَ فاعـلَمْ لأيِّ حالٍ تَصيـرُ[3]
إنَّ شُغْـلَ الـصَّـابيـاتِ من الأَسْـ ـتـارِ طَرْفٌ يُصْـبـي وفـيه فتـورُ
زانَـهُـنَّ الـشُّـفـوفُ يَنْـهَـزْنَ بالـ ـصُّبْـحِ وعَـيْشٌ مفـانِقٌ وحَـريرُ[4]
كَدُمَـى العـاجِ في المحـاريبِ أو كا لَبَـيْضِ في الـرَّوضِ زَهْـرُهُ مُسْـتَنيرُ
لا تُؤاتِـيْكَ إن صَحَـوْتَ وإن أَشْـ ـرَقَ في العـارضَـيْنِ منْـكَ القَتيرُ[5]
وابْـيضـاضُ الـسـوادِ من نُذُرِ الشَّـ ـرِّ وهـل بَعْـدَهُ لأنسٍ نَذيرُ
وَسْـطُهُ كاليراعِ أو سُرُجِ المِجْـ ـدَلِ حينـاً يَخْبـو وحينـاً يُنيرُ[6]
مِثْلَ نارِ الحَـرَّاضِ يَجْلو ذُرَى المُزْ نِ لِمَـنْ شَاقَـهُ إذا يَسْـتَطيرُ[7]
زَجَـلٌ عَجْـزُهُ يُجـاوِبُـهُ دُفٌّ لِخُـونٍ مَأْدوبـةٍ وزَمـيْرُ[8]

(١) المصدر نفسه ج١/١٤١.

(٢) عدي بن زيد: ديوانه جمع وتحقيق محمد جبار المعيبد ص٨٤-٩٢.

(٣) «يريد: أرواح نودعك فيه أو بكور؟ أيهما تريد؟ فاعمد للذي تصير إليه من أمر آخرتك» أغاني ١٥٢/٢.

(٤) الشفوف: جمع شف: وهو الثوب الرقيق، ونهز: نهض، وعيش مفانق: مُنَعَّم.

(٥) أشرق الشيب: انتشر وكثر، والعارضان: جانبا اللحية، والقتير: الشيب أو أول ما يظهر منه.

(٦) اليراع: ذباب يطير في الليل كأنه نار، المجدل: القصر.

(٩) الحرَّاض: الذي يحرق الجص ويوقد عليه النار، المزن: جمع مزنه: وهو السحاب، وشام البرق: نظر إليه.

(٨) الزَّجَلَ: الطرب ورفع الصوت باللعب، والخون: جمع خوان، وهو ما يؤكل عليه الطعام، =

فَثَنايا بالرَّيِّ بَعْدُ وفي الحِنْـ ـوَيْنِ حَطَّتْ به هنالِكَ عِيْرُ[1]
فَسَقى البَطْنَ فالبسيطَةَ فالحِرْ نَيْنِ يَهْدي لِوَجْهِهِ ويَحورُ[2]
فاستَدَرَّتْ به الجنوبُ على الحِر نَّةِ فالحَنْوِ سَيْلُهُ مَقْصورُ[3]
لم أُغَمِّضْ به وشأْبي به ما ذاكَ أنِّي بِصَوْبِهِ مَسْرورُ[4]
بل عناني قول امرىءٍ لم يقل فيـ ـه صوابٌ أبداً ولا تقديرُ
وحَبِيٍّ بعد الهُدُوِّ تُزَجِّيـ ـه شَمَالٌ كما يُزَجِّي الكَسيرُ[5]
مَرِحٌ وَبْلُهُ يَسُحُّ سيول السـ ـماءِ سَحّاً كأنَّهُ منحورُ[6]
[ليت شعري كيف أنت إذا ما ذُرَّ في حُرِّ وَجْهِكَ الكافورُ]
[رَحِمَ اللهُ مَنْ بكى للخطايا كُلُّ باكٍ فذَنْبُهُ مغفور]
أيُّها الشَّامِتُ المُعَيِّرُ بالـ ـدَّهْرِ أأَنْتَ المُبَرَّأُ المَوْفورُ؟[7]
أم لَدَيْكَ العَهْدُ الوثيقُ من الـ أيّامِ بل أنْتَ جاهلٌ مغرورُ

= والمأدوبة المأدبة التي يُدعى إليها الناس. شبّه صدى الرعد في السحاب الطرب بقرع الدف عند أهل عرس يدعون لمأدبة أو فرح.

(١) الرَّيّ: بلدة والحنوين بلد كذلك، وحطت به العير: يقصد أن الريح ساقته إلى هذه الأماكن. والعير: قافلة الحمير، وأطلقت على كل قافلة.

(٢) البطن والبسيطة والحرنين: أسماء أماكن، يهدي لوجهه ويحور: أي يأتيها الماء فيدور فيها ويجتمع.

(٣) استدرت به الجنوب: استحلبته ريح الجنوب، والحرنة: قرية باليمامة.

(٤) شأني الشيء شأناً: احزنني وشاقني.

(٥) الحبي: السحاب يشرف من الأفق على الأرض، أو الكثيف الذي بعضه فوق بعض، يزجيه: يسوقه، والكسير: الأنواء.

(٦) مرح السحاب: إذا أسبل الماء أو المطر، يسح: ينهمر متتابعاً بغزارة، وكأنه منحور: أي أنه كثير الماء.

(٧) الموفور: الذي لم تصبه نوائب الدهر (الأغاني ٢/١٥٢) وعيرته كذا هو المختار الحسن (شرح الحماسة ١/١١١).

مَنْ رأيتَ المنُونَ خَلَّدْن أَمْ مَنْ ... ذا عليهِ من أَنْ يُضامَ خفيرُ
أين كسرى، كسرى الملوك أنو ... شُروانَ، أم أين قبله سابورُ(١)
وبنو الأَصْفرِ الملوكِ، ملوكُ الـ ... ـروم لم يَبْقَ مِنْهُمُ مذكورُ
وأخو الحَضْر إذ بناه وإذ دجـ ... ـلَةُ تُجْبى إليه والخابورُ(٢)
شَادَهُ مَرْمراً وخلَّلهُ كِلْـ ... ـساً فَلِلطَّيْرِ في ذراه وكورُ
لم يَهَبْهُ رَيْبُ المنونِ فباد الـ ... ـمُلْكُ منه فَبَابُهُ مَهْجُورُ
وتَأَمَّلْ رب الخَوَرْنَق إذ أَشْـ ... ـرفَ يوماً وللهُدى تَفْكيرُ(٣)
سَرَّهُ مالُهُ وكَثْرَةُ ما يمـ ... ـلِكُ والبَحْرُ مُعْرِضاً والسَّديرُ(٤)
فارعَوَى قَلْبُهُ وقال وما غبـ ... ـطَةُ حَيٍّ إلى المماتِ يَصيرُ
ثُمَّ بَعْدَ الفلاحِ والمُلْكِ والـ ... إمَّة وارتهم هناكَ القبورُ(٥)
ثُمَّ أَضْحوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جـ ... ـفَّ فَأَلْوَتْ به الصَّبَا والدَّبورُ(٦)
إن يُصِبْني بَعْضُ الأَذاةِ فلا وا ... نٍ ضَعيفٌ ولا أَكَبُّ عَثورُ
غيرَ أَنَّ الأَيَّامَ يَغْدُرْنَ بالمَرْ ... ءِ وفيها المَيْسورُ والمَعْسورُ
فاصبر النَّفْسَ للخطوب فإنَّ ... الدَّهرَ يَدْجو حيْناً وحِيْنَاً يُنيرُ
وأنا النَّاصِرُ الحقيقةَ إذ أَظْلَـ ... ـمَ يَوْمٌ تَضِيقُ فيه الصُّدورُ

---

(١) كسرى: ملك الفرس مُعَرَّب خسرو أي واسع الملك، وأنو شروان هو كسرى الأول، وسابور ملك الفرس مُعَرَّب شاه بور، وقد أُطلق على عدة ملوك منهم.

(٢) الحَضَر: مدينة بناها الساطرون الملك، وتقع في منخفض من بادية ما بين دجلة والفرات بإزاء تكريت بينها وبين الموصل والفرات. والخابور: من روافد نهر الفرات.

(٣) الخورنق: قصر للنعمان الأكبر، مُعَرَّب فورنكاه أي موضع الأكل أو الشرب كان بظهر الحيرة، بناه له سنمار.

(٤) البحر المعرض: الواسع العريض، والسدير أحد قصور النعمان الأكبر اتخذه لبعض ملوك العجم وهو قريب من الخورنق.

(٥) الفلاح: الفوز والنجاة والبقاء في الخير، والإمة: النعمة.

(٦) ألوت به: ذهبت به، والصبا: ريح رقيقة، والدبور: ريح تقابل الصبا، أو إذا تحولت عنها.

يَوْمَ لا يَنْفَعُ الرَّواغُ ولا ... يَنْفَعُ إلا المُشَيَّعُ النِّحريرُ[1]

واشْتَرَيْتُ الجَمالَ بالحَمْدِ إنَّ ... السَّعْيَ فيه الإمْضاءُ والتَّقديرُ

شَيَّعَتْني نُعْمَى عَليَّ لِمَا وا ... ثَقْتُ رَبِّي إنَّ التَّقِيَّ شَكورُ[2]

كَقَصيرٍ إذ لم يجد غير أَنْ جَدَّ ... عَ أَشْرافَهُ لِشُكْرٍ قَصيرُ[3]

أَنْتَ مما لاقَيْتَ يُبْطرُك الأَغْـ ... ـرابُ بالطَّيْش مُعْجَبٌ مَحْبورُ[4]

وَتَمَهَّلْتَ فَوْزَةً أَحْرَزَتْ عِرْ ... ضي من الشَّتْمِ والشُّهودُ كثيرُ[5]

لو تَحَمَّلْتَ مِثْلَها كظَّكَ الأمـ ... ـرُ وحارتْ به لديك الأُمورُ[6]

وتَقولُ العُداةُ أَوْدَى عَدِيٌّ ... وعَدِيٌّ بِسُخْطِ رَبِّ أَسيرُ[7]

لا بِسُخْطِ المَليكِ ما شَيَّعَ العَبْـ ... ـدُ ولا في عِقابِهِ تَنْكيرُ

ظُنَّةٌ شُبِّهَتْ فَأَمْلَكَها القَسْـ ... ـمُ فَعَدَّاهُ والخَبِيْرُ خَبِيْرُ[8]

وكِلانَا بَرٌّ يساعِدُهُ بَرٌّ ... وربي لما أَتَى مَعْذورُ[9]

---

(١) الرواغ: المراوغة، وهي الميل والحياد عن الشيء. والمُشَيَّع: الشُّجاعُ كأنه شيع بغيره، أو بقوة قلبه، والنحرير: الحاذق الماهر العاقل المجرب المتقن الفطن البصير بكل شيء؛ لأنه ينحر العلم نحراً.

(٢) واثق به: عاهده بالطاعة والتقوى.

(٣) قصير: هو قصير بن سعد بن عمرو اللخمي، وكان صاحب رأي ودهاء من خلصاء جذيمة الأبرش وقد ثار لجذيمة من الزباء قاتلته إذ جدع أنفه وأذنه تطميناً لها، فسهل له ذلك الانتقام منها (الديوان ص٩١)، وأشرافه: الأنف والأذن.

(٤) البَطَرُ: قلة احتمال النعمة وكفرها والطغيان بها، وكراهية الشيء من غير أن يستحق كراهة، المحبور: السعيد المنعم، والأغراب: كثرة المال (الديوان: ٩١).

(٥) الفوزة: الظفر بالنعمة، وأحرز: صان، والمعنى: تريثت في إحراز النعمة عندك إلى أن فزت بها فصنت عرضي من الشتم والذم.

(٦) كظه الأمر: غاظه وكربه.

(٧) أودى: هلك.

(٨) الظِّنَّة: الشبهة، القسم: الشك.

(٩) البر: الصادق، الكثير الإحسان، وأراد بالرب: النعمان.

إنَّــه رَبِّــي لولا تَدارُكَــهُ الــمُــلْــ ـــلكَ بأَهْــل العــراقِ ساء العَــذيرُ[1]
خَصَّــه اللهُ وارتــضــاه لمــا قد .....
مَلِكٌ يَقْــسِــمُ الــخــزائِــنَ والــذِّمَّــ ـــةَ قد ردَّهــا وكــادَتْ تبــورُ
عالِــمٌ بالــذِّي يُرِيدُ نِقِــيُّ الــصَّــ ـــدْرِ عَفٌّ على جُثَــاهُ نحــورُ[2]

* * *

ويطرح الأصمعي نموذجاً شعرياً في الغزل[3] يجد فيه جمالاً وإحساناً بما تضمنه من عفاف المحب، وقناعته بالنظرة، وتصون المحبوب بالتأبي، بما يدل على اتجاه الأصمعي الخلقي في الانتخاب والرواية بعيداً عن معيار الفحولة من غير حيف على معطيات الفن والجمال.

روى الشريف المرتضي قال: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الكاتب قال: أخبرنا ابن دريد قال: أنشدنا أبو حاتم قال ابن دريد وأنشدنا عبد الرحمن ـ يعني ابن أخي الأصمعي ـ عن عمه، عن الحسين بن مطير الأسدي[4]، وقال عبد الرحمن، قال

---

(١) الغذير: الحال.

(٢) على جثاه نحور: كناية عن تدينه. والجثا: تراب كان يجمع ويجعل عليه حجارة وينحر عليها للأصنام. (الديوان ٩٢ نقلاً عن حاشية أمالي المرتضي).

(٣) من مرويات الأصمعي في الإحسان من الشعر الجاهلي قصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري «بسطت رابعة الحبل لنا...» وقد فضلها بقوله: «كانت العرب تفضلها وتقدمها وتعدها من حكمها» وكانت في الجاهلية تسميها اليتيمة لما اشتملت عليه من الأمثال. (الأغاني: ١٠٢/١٣).

(٤) الحسين بن مطير بن مكمل مولى لبني أسد بن خزيمة ثم لبني سعد بن مالك، وكان جده مكمل عبداً فأعتقه مولاه، وقيل بل كاتبة، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، شاعر متقدم في القصيد والرجز، وكلامه يشبه مذاهب الأعراب واهل البادية. وفد على معن بن زائدة لما وُلي اليمن فمدحه، وكان أبو عبيدة معجباً بشعره. (الأغاني ١٦/١٧ـ٢٥).

عمي: لو كان شعر العرب هكذا ما أثم منشده[1]:

ألا حَبَّ بالبيت الذي أنت هاجره ... وأنت بتَلْماحٍ من الطَّرفِ ناظرُهْ[2]
لأنك من بيتٍ لعينيَ مُعْجَبٌ ... وأملحُ في عيني من البيت عامرُهْ
أصدُّ حياءً أن يَلِجَّ بي الهوى ... وفيك المُنى لولا عدوٌّ أحاذِرُهْ[3]
وفيك حبيبُ النَّفس لو تستطيعُهُ ... لماتَ الهوى والشوقُ حين تجاورهْ
فإن آتِهِ لم أَنْجُ إلا بِظَنَّةٍ ... وإن يأته غيري تُنَطْ بي جرائرُهْ[4]
وكان حبيب النفس للقلب واتراً ... وكيف يحبُّ القلبُ من هو واتِرُهْ![5]
وإن تكن الأعداءُ أحموا كلامه ... علينا فلن تحمي علينا مناظِرُهْ
أُحبك يا سَلْمى على غير ريبَةٍ ... ولا بأسَ في حُبٍّ تَعِفُّ سرائِرُهْ
ويا عاذلي لولا نفاسةُ حُبِّها ... عليكَ لما بالَيتُ أنَّك خابِرُهْ
بنَفسي من لا بُدَّ أني هاجِرُهْ ... ومن أنا في الميسورِ والعُسْرِ ذاكرُهْ
ومَنْ قد لحاهُ الناسُ حتى اتقاهمُ ... ببُغْضي إلا ما تُجِنُّ ضمائِرُهْ[6]
أُحِبُّك حُبّاً لن أُعَنَّفَ بَعْدَهُ ... مُحِبّاً ولكِنّي إذا ليْمَ عاذِرُهْ
لقد ماتَ قبلي أولُ الحبِّ فانقضى ... ولو متُّ أَضْحى الحبُّ قد ماتَ آخِرُهْ
كلامُك يا سَلْمى وإن قَلَّ نافعي ... ولا تَحْسَبي أنِّي وإنْ قلَّ حاقِرُهْ
ألا لا أُبالي أيَّ حيٍّ تَحَمَّلوا ... إذا ثَمَدُ البرقاءِ لم يَجْلُ حاضِرُهْ[7]

(١) الشريف المرتضي: أمالي المرتضي ١/ ٤٣١-٤٣٢ وفي أمالي القالي ١/ ١٠٨ نسبت الأبيات لعبد الله بن الدمينة، وفي معجم الأدباء ٤/ ٩٩-١٠٠ نسبت للحسين بن مطير.

(٢) التلماح: اختلاس النظر.

(٣) لج به الهوى: وقع في لجته، واللجة في الأصل معظم الماء، والمقصود: الخصومة من العتاب وغيره.

(٤) ناطه به: عَلَّقه به، والجرائر: جمع جريرة وهو الذنب.

(٥) الواتر: القاتل.

(٦) لحاه: آذاه بالقول.

(٧) ثمد البرقاء: موضع بالجزيرة، والثمد في الأصل: الماء القليل.

ولعل الأصمعي نظر في القصيدة إلى الفيض المتدفق من مشاعر النُّبل وأحاسيس الطهر والنقاء، فقد أبدى الحسين بن مطير حرصاً شديداً على محبوبته، فهو يرغب في وصالها إلا أن خشية التمادي في الهوى تصده عن ذلك فضلاً عن عاذل عدو يحاذره، فيحرص أشد الحرص على النجاة منه بظنة يعميها عليه إذا ما غالبه الهوى فقصدها زائراً.

وعلى الرغم من أن الخلوة بالمحبوب أمنية لدى الحسين بن مطير إلا أنه يفضل الحرمان على المواصلة، لأنه مدرك أن تباريح الشوق خير من المجاورة ومباعدة ديمومة الحب والهوى:

وفيك حبيب النفس لو تستطيعه ... لمات الهوى والشوق حين تجاوره

ولم يحل جفاء المحبوب بسعي الوشاة والأعداء دون بقاء الشاعر على عهده له، وإخلاص المودة لحبه، لأن حبه نفيس نقي، عف السريرة، ليس فيه ريبة أو أذى له:

وإن تكن الأعداء أحموا كلامه ... علينا فلن تحمي علينا مناظره
أُحبك يا سلمى على غير ريبةٍ ... ولا بأس في حُبٍّ تعِفُّ سرائره
ويا عاذلي لولا نفاسة حُبِّها ... عليك لما باليتُ أنَّك خابره
بنفسي من لا بُدَّ أني هاجره ... ومن أنا في الميسور والعُسْرِ ذاكرُه

وإخلاص الحسين بن مطير في حبه ساقه إلى الإحساس بالتفرد بين العاشقين، ولذلك فهو يرفض أن يعنفه أحد، أو أن يلومه لائم، فهو آخر المحبين الذين يرعون قداسة الحب وطهره:

أُحبك حباً لن أعنف بعده ... محباً ولكني إذا لِيْمَ عاذره
لقد مات قبلي أول الحب فانقضى ... ولو مت أضحى الحب قد مات آخره

على أن الشاعر لم يستأثر بهذه المشاعر دون محبوبته، بل أشركها في حذر

الناس، وخوف السمعة، ومباعدة الريبة بقلة الكلام:

ومن قد لحاه الناس حتى اتقاهم ببغضي إلا ما تجنُّ ضمائره
كلامك يا سلمى وإن قل نافعي ولا تحسبي أني وإن قلَّ حاقره

بذلك كان الحسين بن مطير ذا مروءة في حبه، عفيفاً في عشقه، مقتصداً في تصويره لأحاسيه، يقول الشريشي: «وأما أهل المروءات والتصاون فغايتهم إعلام المحبوب بشأنهم، وكتمه عن الناس، وذلك شديد، ولا يقوم به إلا من كمل عقله»[1].

وتكتسب مرويات أبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب والأصمعي صبغة من الإحسان زائدة على كونها نماذج ذات نسق جمالي، في التعبير عن قضيّة تتناغم فيها عناصر القصيد ومكونات الفن، ذلك أن هؤلاء الثلاثة ثقات في الرواية متميزون بأنهم أصحاب اتجاه خلقي وسنة، روى البغدادي بسنده عن إبراهيم الحرمي قال: «كان أهل البصرة أهل العربية، منهم أصحاب الأهواء إلا أربعة، فإنهم كانوا أصحاب سُنّة؛ أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب، والأصمعي»[2].

* * *

وأفرد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد باباً للمختار من شعر المولدين رصده لهدفين أحدهما خلقي تربوي، وثانيهما تعليمي سلوكي، فقال: «هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة، يحتاج إليها للتمثل؛ لأنها أشكل بالدهر، ويستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب»[3].

من ذلك قول محمود الوارق[4]:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحبَّ لمن يُحِبُّ مطيعُ

(١) الشريشي: شرح مقامات الحريري ٢/٨٧.
(٢) البغدادي: تاريخ بغداد ١٠/٤١٨.
(٣) المبرد: الكامل ج٢ ص٣. (٤) الكامل: ج٢/ ص٤.

وله أيضاً[1]:

يا ناظراً يرنو بعيني راقدٍ ... ومشاهداً للأمر غير مشاهدِ
منيت نفسك ضَلَّةً وأبحتها ... طُرُقَ الرَّجاء وهُنَّ غير قواصدِ
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي ... درَكَ الجنانِ بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدماً ... منها إلى الدنيا بذنبٍ واحدِ

ولصالح بن عبد القدوس قوله[2]:

إن يكن ما أُصبتُ به جليلاً ... فذهاب العزاءُ فيه أَجَلُّ
كلُّ آتٍ لا شك آتٍ وذو ... الجهل مُعَنًّى والغَمُّ والحزن فَضْلُ

وللحسن بن هانىء الحكمي المعروف بأبي نواس قوله في الفضل بن الربيع[3]:

ما من يَدٍ في الناسِ واحدةٍ ... كيدٍ أبو العباس مولاها
نام الكرامُ على مضاجعهم ... وسرى إلى نفسي فأحياها
قد كنتُ خِفْتك ثم أَمَّنَني ... من أن أخافكَ خَوفُك الله
فعفوت عني عفو مقتدرٍ ... حَلَّت له نِقَمٌ فألغاها

وله أيضاً[4]:

إليك غدت بي حاجةٌ لم أبح بها ... أخاف عليها شامتاً فأداري
فَأَرخِ عليها سِتْرَ معروفك الذي ... سَتَرْتَ به قِدْماً عليَّ عواري

ولِدعْبل بن علي الخزاعي قوله[5]:

أحببتُ قومي ولم أَعْدِلْ بِحُبِّهُم ... قالوا تَعصَّبْتَ جهلاً قولَ ذي بَهَتِ
دَعْني أَصِلْ رَحِمي إن كنتُ قَاطِعَها ... لا بُدَّ للرَّحِمِ الدُّنيا من الصِّلَةِ

---

(١) الكامل: ج٢/ ص٦.
(٢) الكامل: ج٢/ ص٧.
(٣) الكامل: ج٢/ ص٦.
(٤) الكامل: ج٢/ ص٩.
(٥) الكامل: ج٢/ ٩-١٠.

فاحفظ عَشِيْرَتَكَ الأَدْنَيْنَ إنَّ لَهُم حقاً يُفَرِّقُ بين الزوجِ والمَرَةِ
قومي بنو مَذْحَجٍ والأزدُ إخوتُهُمْ وآلُ كِنْدَةَ والأحياءُ مِنْ عُلَةِ
ثُبُتُ الحُلومِ فإن سُنَّتْ حَفَائظُهُمْ سَلّوا السيوفَ فأردوا كلَّ ذي عنتِ
لا تعرِضَنَّ بِمَزْحٍ لامرِىءٍ طبنٍ ماراضَهُ قلبُهُ أجراهُ في الشَّفَةِ
فربَّ قافيةٍ بالمزح جاريةٍ مشئومةٍ لم يُرَدْ إنماؤها نَمَتِ
إني إذا قلتُ بيتاً ماتَ قائلُهُ ومَنْ يقالُ له والبيت لم يَمُتِ

ولأبي العتاهية قوله[1]:

يا مَنْ يعيبُ وعَيْبُهُ مُتَشَعِّبٌ كم فيك من عيبٍ وأنت تعيبُ
لله دَرُّكَ كيف أنتَ وغايةٌ يدعوك ربك عندها فتجيبُ

وله أيضاً[2]:

طوتك خطوب دهرك بَعْدَ نشر كَذاك خطوبُهُ نشراً وطَيًّا
فلو نَشَرتْ قواك لي المنايا شكوتُ إليك ما صَنَعتْ إلَيَّا
بكيتكَ يا أخي بدمعِ عيني فلم يُغْنِ البُكاءُ عليك شَيًّا
كفى حَزَناً بِدَفْنِكَ ثم إني نفضت تراب قبرك عن يَدَيًّا
وكانت في حياتك لي عظاتٌ وأنت اليومَ أوعظُ منك حَيًّا

قال المبرد: «وأنشد منشد من الأبيات المنفردة القائمة بأنفسها»[3]:

إذا أنت لم تَعْصِ الهوى قادك الهَوَى إلى بعض ما فيه عليك مقالُ

ومنها قول ابن وهيب الحميريّ:

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظَّنِّ ما الله صانِعُ

وقال أشجع السلمي:

رأيٌ سرى وعيون الناسِ راقدةٌ ما أَخَّرَ الحزمَ رأيٌ قَدَّم الحذرا

---

(١) الكامل: ج٢/ ١٠.
(٢) الكامل: ج٢/ ١١.
(٣) الكامل: ج٢/ ٧ـ٨.

وقال آخر:

فلله منـي جانـب لا أضـيّعُـهُ ولـلهـو مني والبـطالـة جانبُ

وقال آخر:

فلو عاب نفسـي غيرُ نفسـي لَسُؤْتُـهُ فكـيف ونـفـسـي قد أتـت ما يعيبهـا

وقال آخر:

يرى فلتـاتِ الـرأي والـرأيُ مقبـلٌ كأنَّ له في الـيوم عينـاً على غدِ

وعلى الرغم من أن هذه المرويات منتخبات محددة الغاية في الحكمة والتعليم، وأنها ليست عالية الشرف والدرجة في التصوير والتعبير؛ إلا أنها تعطي دلالة على أن الإحسان ليس مقصوراً على الشعر القديم دون الحديث، ولا على من عرف بقوامة الاتجاه، وانضباط السلوك، بل قد يقع هذا وذاك في شعر من شهر بخوارم المروءة من فسق ومجاهرة بمعصية.

* * *

ومن مرويات الإحسان عند رواة الشعر في الكوفة ما رواه أبو علي القالي (ت ٣٥٦هـ) قال: حدثنا أبو بكر الأنباري رحمه الله قال: حدثنا عبد الله بن خلف قال: حدثنا محمد بن أبي السرى قال: حدثنا الهيثم بن عدي قال: كنّا نقول بالكوفة إنه من لم يرو هذه الأبيات فلا مروءة له، وهي لأيمن بن خريم الأسدي[1]:

وصَـهْـبـاءَ جُرْجـانـيةٍ لم يَطُفْ بهـا حَنـيفٌ ولم تَنْغَـرْ بهـا ساعـةً قِدْرُ[2]

ولـم يَحْـضُـر الـقَسُّ الـمُهَيْنمُ نارَهـا طُرُوقـاً ولم يَشْهَـدْ على طَبْخِهـا حَبْرُ[3]

---

(١) أيمن بن خريم بن فاتـك من بني أسد، أسلم ووالده خريم يوم الفتح، فيكون لأيمن بذلك صحبة، وكان أبوه خريم قد صحب النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه بعض الأحاديث، وكان في أيمن برص، وكان أثيراً عند عبد العزيز بن مروان. (انظر الإصابة ٢/١٠٩ والأغاني ٢١/ ٥ـ٨).

(٢) الصهباء: الخمر، أو المعصورة من عنب أبيض، والحنيف: المسلم، ونغرت القدر: غلت.

(٣) المهينم: الذي يقرأ بصوت خفي، والطروق؛ الحضور ليلاً.

أتـانـي بهـا يحيى وقـد نِمْتُ نَومْـةً ... وقـد غابتِ الشِّعرى وقد جَنَحَ النَّسْرُ[1]
فقـلت اغـتـبـقهـا أو لغيريَ فاسْقِهـا ... فمـا أنـا بعـد الشَّيْبِ وَيْبـكَ والخمْرُ[2]
تَعَفَّفتُ عنهـا في العُصـورِ التي خَلَتْ ... فكيفَ التَّصـابي بعـدمـا كلأَ العُمْـرُ[3]
إذا الـمـرءُ وَفَّـى الأَرْبَـعـينَ ولـم يَكُنْ ... له دونَ ما يأتـي حياءٌ ولا سِتْـرُ
فَدَعْـهُ ولا تَنْفَس عليه الـذي ارتـأى ... وإن جَرَّ أسبـابَ الحياةِ له الـدَّهْـرُ[4]

وهكذا فإن مرويات الإحسان لم تكن قصراً على بيئة اللغويين في البصرة دون الكوفة، غير أن في الإشارات السابقة بعض تنبيه على اهتمام رواة البصرة بالإحسان وارتباطهم بالتوجه الخلقي في الرواية.

وهكـذا أيضـاً تلاحم مقياس الإحسـان في التربية ومعيار الفحولة والبداوة في الاحتجاج والاستشهاد، فمن قعد به عصره عن ذلك الفضل قام به أدبه وخلقه، ومن تأخـر عن فصـاحة أهل الوبر، تقدم بإحسان أهل المدر والحضر، وبذلك يتكامل المنهج عند أهل اللغة في حرصهم على الإسلام، فكما أنهم كانوا أوفياء لكتاب الله بطلب نقاء اللغة وأصالة انتمائها، فقد كانوا أمناء على نظافة المجتمع الإسلامي بتربية أخلاق أبنائه وسمو حضارته.

---

(١) والشِّعرى: نجمان في السماء أحدهما الشعرى الغميصاء، والشعرى العبور، وهما أختا سهيل.

(٢) الاغتباق: شرب العشي، ويبك: ويلك.

(٣) كلأ العمر: قال أبو علي: انتهى إلى آخره، ويقال: بلغ الله بك أكلأ العمر: أي آخره.

(٤) ارتأى: افتعل من الرأي، وتنفس: تحسد.